بسم الله الرحمن الرحيم ،الحي القيوم ،الحكيم العليم ،والصلاة والسلام على النبي الكريم ،محمد وآله وصحبه ،ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

ليتني قبلت قدميك من قبل...

قصة قصيرة...

تقديم :

هذه القصة والتي وسمتها ب"ليتني قبلت قدميك "،انبثقت من أعماق الأعماق ،وأسأل الله أن ينفع بها في الحين والآفاق ...وهي صدقة جارية لي ولوالدي و لجميع من قرأها و نشرها في سبيل الله ،و لجميع المسلمين و المسلمات و المؤمنين و المؤمنات .

وفيما يلي نبذة عن كاتبها :

عنوان القصة : (ليتني قبلت قدميك) .

الكاتب : معروف عبد الرحيم .

المهنة :أستاذ مادة الرياضيات .

الهواية الأولى : الكتابة (الرواية –القصة-القصة الصغيرة و الصغيرة جدا –شعر حر –المقالة الفكرية والسياسية ...)

التخصص : الفقه الإسلامي و أصوله .

المهنة :أستاذ مادة الرياضيات

شواهد خارج الاختصاص : الإجازة في أصول الفقه و سنة ختامية ماجستير/تخصص في الدراسات الإسلامية .

الإنتاجات :نشرت العديد من المقالات و القصص والقصائد في مجلات وجرائد وطنية وعربية ورقية والكترونية.

آخر إصدار أدبي : رواية بعنوان *الحفيد* ورقية .

البريد الالكتروني :

abderrahim1433@gmail.com

ليتني قبلت قدميك من قبل...

صرخ وهو يلوح بيده ،ويحتج و يتأفف وفي وجهه غضب كأنه تسونامي ضرب شواطئ نفسه المغرورة والمتعجرفة،وعيناه جاحظتان كأنهما عيني عفريت من عفاريت الجن .والمسكينة تنظر إليه برفق و حب ملتمسة له الأعذار،مشفقة عليه خائفة أن تمسه الأخطار ،مسترسلة يديها نحوه،كأنها تطلب منه الاعتذار، وألم الانتظار واضح على صفحة وجهها ...لكنه تركها بكل وقاحة و احتقار وهو يشير بأنامله أنه يريد منها حفنة دراهم لا شيء غير الدراهم، لا يريد العشر أو العشرين ،بل هو طامع في الزرقاء فما فوق !

حينما لم يحقق مبتغاه بالتكرار، اتخذ القرار و لبئس القرار :كاد أن يلصق الباب على وجه أمه،وهي تهرول خلفه بلهفة وشوق ،مرددة :

- بني سأحضر لك جزءا من المال الذي طلبته شريطة ألا تشتري به المخدرات .

أجابها بوقاحة وقلة أدب :

- أريد كل المال أو لا شيء.

ثم غاص الابن العاق في شوارع المدينة و أزقتها بدراجته النارية، وهو يراوغ السيارات بتهور وغرور.متجها نحو مستنقعات المخدرات والمسكرات ،وإذا ما وصل بدأ يصرخ بصوت مقزز كأنه صوت خنزير:

- هتلر ...وا هتلر !!! (اسم المهنة السيئة السمعة).

فخرج من بطن هيكل شاحنة متوفية رجل ،قصير القامة ،تملأ وجه آثار جروح كثيرة ،ربما كانت نتيجة معارك سابقة بين تجار المخدرات المنافسين ،في السوق المحظورة .

- ماذا تريد يا نديم ؟
- لم أجد المال الكافي لاقتناء البضاعة ،أنقدني بشيء من الحشيش كي ألفف سيجارة،أو اثنتين أعالج بهما صداع رأسي، إنها تكاد تتطاير في الهواء .
- يا صاح...يا نديم إذا منحتك دون مقابل ،من أين لي أن أدفع لرئيس مافيا البخور ،(يقصد رئيس سوق المخدرات)
- من فضلك امنحني قطميرا أو نقيرا !!!
- أف عليك ،ما رأيت صعلوكا مثلك ...
- ليرحم الله والديك ....ستكون آخر مرة ،آتي عندك بدون نقود !

فضحك هتلر حتى أبان عن أسنان سوداء نخرة ،كأنها صخور بحرية تهشمت بفعل لكمات أمواج :

- هل تسخر مني،متى كان الحشيش والكوكايين وكل ما حرم الله !!! صدقة ،تصل للأموات؟ هههههه.... لأنك أضحكتني سأمنحك قطعة صغيرة ولكن على سبيل القرض هههههههههههه ...
- موافق أخي هتلر...هاي هتلر، وحياه على الطريقة النازية الشهيرة ،مادا يده إلى الأمام .

أحس نديم بذل مخز ومن أجل ماذا؟...من أجل سم يقتل النفس والحس ،وكيف لا يهان وقد أهان من جعلت الجنة تحت أقدامها .

ناوله جزءا صغيرا من الحشيش ،فتلقفه من بين أنامله كما تتلقف الأفعى فريستها،مرددا العبارة التي اشتهر بها " لنحلق في السماء بلا طائرة تطير "وأخرى بالعامية مباشر " أيتوب علمكتوب"،بمعنى ليتوب الله عز وجل على هذا المكتوب،ثم ركب دابته الآلية فغاص في بحر من السيارات والشاحنات، والحافلات

والدراجات ،يراوغ كل ما يدب على الطريق .وكلما احتج عليه سائق أشبعه شتما ولمزا وغمزا ، رافعا يديه نحو الأعلى بتجبر وتكبر وتبختر .

اتجه إلى عين من العيون الطبيعية الموجودة خارج المدينة ، حيث تتنوع الكائنات الطبيعية ،من زهور وطيور ، شكلت لوحة تبهج النفوس وتنسي الآهات و الآلام و صداع الرؤوس .والمياه منسابة بوداعة وانسجام، راسمة على أديم الأرض منعرجات، تزرع الحياة بإذن ربها،تحت شعار:

(وجعلنا من الماء كل شيء حي)[1] ، فهي تسبح قائمة بدورها الذي خلقت من أجله ،عكس نديم،عربدة بالمخدرات وأخرى على الطرقات .

إذا ما وصل إلى مكان جذاب، فيه خضرة النبات وخرير المياه ،أوقف دراجته ثم اضطجع على العشب،فأخرج وسائل صناعة الموت البطيء أو لنقل إنتحار بالتقسيط !:"سيجارة و لفيلف ورقي وقطعة حشيش "وبدأ في ترتيب صناعة ما يصطلح عليه عرفا عند المدمنين ب (الجوان).

إذا ما انتهى من صناعة أخت أم الخبائث، أخرج قداحته التي هي من أرقى الولاعات صنعا و أغلاها، ثم أوقد الصاروخ، الذي سيسافر به إلى جحيم من الخيال و العبث ،و يوصله بعد حين إلى الفناء والموت .

اجترع دفعات متتابعة كأنه ضبع جائع ،وجد جيفة على حين غرة ،فارتخت أعصابه وتلاشت مفاصله، وتلون وجهه بصفرة،كأنه مريض يحتضر،أو إلى الماء أو الطعام يفتقر،ثم غفا غفوة خفيفة، نام بعدها ....

رن هاتف جيب نديم، فإذا هي أخته جود :

---

[1] - سورة الأنبياء/الآية 30

- نديم ...نديم ...أمي في خطر لقد دهستها سيارة وهي في غرفة الإنعاش والعناية المركزة .
- ويحك ...ماذا تقولين ؟؟؟
- ما سمعت ..أسرع .

وتب نديم على دراجته النارية قاطعا الاتصال ثم غاص في الطريق،بسرعة جنونية ،في سباق مع الزمن،وفي وجهه حسرة وندامة ،ومن عينيه تفيض دموع صامتة كأنها نذير عاصفة هوجاء في لسلة ظلماء .

إنها وقت الذروة والطريق مملوءة عن آخرها ،وإشارات المرور توجد بكثرة في ملتقيات الطرق، التي تؤدي للمستشفى المركزي ...ماذا يفعل نديم إنه في غاية الحيرة ،تمنى لو أن له جناحين، فترفرف مسرعة نحو الغرفة المخيفة ، حيث ترقد أمه هناك ،بين سطوة الموت ومقاومة الحياة ،فهو لا يتذكر إلا ذلك الحوار الذي دار بينهما ،والذي ربما تسبب في توتير أعصابها، بل وقد صفع الباب أمام وجه أمه ،إنه حقا موقف خطير وحرج لا يحسد عليه .

واصل نديم طي صفحات الطريق ،كأنه يتصفح صفحات مجلة ،ينقب فيها عن مقال في عمق صفحاتها ، ودموعه تذرف بانسياب غزير،كأنها إحدى شلالات أزود ،المنبثقة من عمق جبال الأطلس ،هبة الرب لأهل المغرب ،صدمة ما كان ينتظرها ،نزلت عليه كالصاعقة .

أعاد الاتصال بأخته،يريد الاطمئنان على أمه المسكينة :

- ...أختي كيف حال لميما ؟(إشارة لأمه)

أجابته وصوت بكائها، ينذر بوقوع ما كان عنه يحيد :

- أمي الحبيبة في غيبوبة شاملة، لا تحرك شيئا ،أسرع يا أخي .
- إني آت...آت ...آت. اللهم سلم ..اللهم سلم .

كلام غريب عن قاموس نديم، الذي لكم يألف الجمهور منه، إلا ألفاظ السب والقدح ،ومظاهر الغرور و سائر الشرور ...
تابع المسير وآثار التعب، بادية على وجهه، كأنه يسير في مفازة،ممتطيا ناقة بطيئة السير، عظيمة البدن .
هو الآن على مشارف المستشفى بل وصل الباب الرئيسي،وإن كانت الدقيقة عنده مثل الساعة ،إنه الزمن الحي (البيولوجي)،فترك دراجته دون قفل ،ثم ابتلعه المستشفى، وهو يعدو عدو الأبطال، في حلبة النزال ،بدأ نديم يراوغ المارة و أطر التمريض الموجودين في ممرات المستشفى ،حتى إذا شاهد مكتب الإرشادات وتب على منصته ،وهو يتمتم كالمعتوه ...قائلا :

- من فضلك أين توجد قاعة الإنعاش، حيث توجد أمي فاطمة ندوي ...
- القاعة 24 علوي سيدي ..

تابع العدو نحو المدرج، فصعده كأنه صاروخ فضائي ،إنه يتصرف بقوة باطنية، مملوءة بطاقة الندم ،تسقى من عين الذاكرة ،التي تحيله إلى كل فعل مشين، اقترفه في حق أمه المسكينة.
بدأ يلهث من شدة التعب وكثرة العدو خصوصا أنه سكير و مدخن ومدمن، منذ زمن طويل ،وصل الغرفة، لكنه ليته ما وصل،تمنى لو ابلعته الأرض ،أو اقتلعته السماء ،على مشاهدة هذه النتيجة المصيبة وعن بعد : ...أخته جود تصرخ واضعة يديها على ركبتيها ،وجالسة جلسة القرفصاء وهي تصرخ :

- وا أماه وأماه و أماه ...ماتت أمي لقد ماتت أمي،ماتت الحبيبة الطيبة التقية النقية الصفية البهية ،يرحمك الله يا أمي ....

انهار نديم بكاء ،فلم يعد شيئا يقف أمام جحافل الدموع ،التي غزت أجفانه وجيوش الحزن التي استولت على نفسه،وهو يصرخ كالمجنون مرددا :

- ليتني قبلت قدميك أمي من قبل ...فأفوز فوزا عظيما وأظفر بالجنان ورضى الرحمان ...رحلت أمي دون إنذار ولا سابق إعلان...ليتني قبلت قدميك الطيبتين، اللتين شقتا من أجلنا، ومن أجل سعادتنا ....عودي أمي ولن أزعجك ...بالله عليك أمي استيقظي وسوف أمتنع عن التدخين و السكر و الإدمان ،وسوف أصلي الفجر و سائر فرائض الإسلام و الإيمان ...عودي حبيبتي ليتني قبلت قدميك من قبل .

لا يتذكر إلا سلوك العقوق، الذي صدر منه في حق أمه ،فكلمة أف التي كانت لا تفارقه ،بل الصراخ في حضرتها و استنزاف قدراتها المادية المتواضعة ،كل هذا تجمع في عقله ،و أدرك الحقيقة المرة التي يتحمل مسؤوليتها :

انه ابن عاق ...وما أدراك ما العقوق ... حيث لا حظ له، في دار الفسوق، ولا في دار الحقوق ...ثم جاش من جديد بالبكاء مرددا وبجنون وهذيان :

- هل أنا عاق ؟هل حقا أنا عاق ؟ هل أغضبت ربي؟ و احسرتاه و ا ندماه .. أللعاق توبة ؟أم أنتظر العذاب ...ولعذاب الانتظار أشد و أخطر وللعذاب المنتظر أدهى و أمر . ...ليتني قبلت قدميك من قبل فأفوز فوزا عظيما ...ليتني قبلت قدميك من قبل أن ترحلي و تتركيني وحيدا ،أترنح مثل ديك مذبوح، بشفرة غير حادة ،ليتني فعلت ذلك فأظفر بالفلاح الأكبر و النجاح الأجدر والعمل المقتدر...ليتني قبلت رأسك و قدميك ويديك،ومسحت دموعك الطاهرة عن خدك، و العرق من جبينك ،ولنمت على حجرك أسترجع، تاريخ حنانك ورأفتك، منذ الصبا إلى الآن ،تداعبين جذور شعري بأناملك الرءوفتين، ليتك عدت فأعمل ليل نهار ، وأحضر لك المال وأجمل لك الحال والمآل ،وأشتري لك كل ما تحبين ،ولو كان في قمم الجبال أو تحت سطوة الرجال ...ليتك

عدت حبيبتي ، فأنظف المنزل كل يوم، قبل أن تستيقظي من النوم ، و أحضر لك العشاء والغداء كل يوم ....وفي كل صباح فطورا لذيذا وإن صمت أصنع لك سحورا خفيفا، وأعطر غرفتك بأغلى البخور و أحلى العطور ...يا من أعماني عنك الغرور ...و يا أطهر من الزهور ....ليتني قبلت قدميك قبل الرحيل،لو كان ممكنا لافتديتك بنفسي ،و لكنت بدلك .

ولما شاهدت جود أخاها على تلك الحال ،أسرعت إليه و أخذت بيده مخاطبة :

- على رسلك يا أخيي ،هون على نفسك ،فرحمة الله واسعة ،ومن يحول بينك وبين مغفرة الله وعفوه ، ...ارجع إلى ربك فيقبل توبتك ...تعالى لندخل نلقي النظرة الأخيرة على وجه أمنا ..
- ليتني أقدر ..
- ستقدر بإذن الله القدير المقتدر..

أطاع نديم أخته ،بيد أنه ، ما إن نظر في وجه أمه، حتى صاح بصوته مرتفع ومتصل وقوي كأنه يطلب النجدة وهو يبكي :

يا الله ... يا الله ... يا الله ... يا الله ... يا الله ... يا الله ...

لكن ما الأمر ؟أليس هذا كله حقيقة؟ !!

...فجأة أفاق نديم من نومه ،التي باغته وقت تناوله ذلك الملفوف من الحشيش ،يبدو أن الأمر لا يغدو أن يكون إلا كابوسا جميلا انتابه، وربما هي موعظة ربانية ،و أن قصة موت أمه سوى رؤيا في المنام ليس إلا،فنهض فزعا وقد زالت سكرته بالمخدر ،وهو يتمتم (أمي ..أمي ..أمي)فنظر إلى مكان الدراجة فإذا هي قد سرقت ،ونظر إلى أنظار الناس ،فإذا هي حوله تجمعت،ونظر إلى السماء فإذا هي غيمت، فقال في قرارة نفسه " خيرا إن شاء الله، الحمد لله أن أمي ماتت في المنام، ولم تمت في الأنام ،اللهم إني تبت إليك توبة نصوحا ،

اللهم أحييني حتى أرى أمي و أقبل قدميها "
ثم أخرج هاتفه الجيبي ، وهاتف أمه :

- السلام عليكم ،أمي الحبيبة !!!
- السلام عليكم ...أأأ...أأنت بني نديم ؟
- أجل ...الحمد لله أنك لازلت حية ترزقين ...
- ماذا ؟؟؟
- سامحيني أمي على كل إساءة أسأتها في حقك، أنا نادم على كل ما فعلت من عقوق، وما فرطت لك من حقوق، فهلا غفرت لي أماه ؟

كادت الأم أن تقع أرضا ، من قوة المفاجئة،وهول المباغتة، وهي تردد في مكنون نفسها "سبحان مبدل الأحوال من حال إلى حال":

- الحمد لله وكيف لا أسامحك وقد سامحتك دوما وسهرت الليالي أدعو الله لك بالتوبة ...ولكن قل لي ما السر في ذلك ؟
- لقد من الله على برؤيا ،كانت مفتاح كل هذا الخير، ولن أكمل لك قصتي ،إلا وأنا اقبل قدميك، و أتوسد ركبتيك،وتمسحين بيديك الطاهرتين شعري، كما كنت تفعلين دوما ،في صغري و شبابي ... أقفلي الهاتف أمي رجاءا،فإني استحيي أن أقفل الهاتف في وجهك النوراني الوضاء !ومشتاق إليك .
- نعم بني ها أنا ذا أقفل الهاتف مرغمة في وجهك !الذي هو خير من روحي التي تسكن أضلعي ،الحمد لله ملئ السماوات والأرض وملئ ما بينهما وملئ ما شئت يا رب بعد ذلك .
- ...حمدا طيبا مباركا فيه ،كما ينبغي لجلال وجه وعظيم سلطانه
- سبحان الله !

ذهب في البحث عن سيارة أجرة في سكون ووقار وسكينة، قلما لوحظت عليه ،وبابتسامة أشار إلى سيارة أجرة،أقلته إلى المنزل .

أدى الثمن لصاحب السيارة ثم قال له "احتفظ بالباقي"، فلا وقت له لضياعه ،وكل متاع الدنيا لا يساوي ابتسامة أم لابنها،مفعمة بالحنان والرحمة .

وتب على زر جرس المنزل بيده، مرت ثواني وهو ينتظر، فالأم كانت قرب الباب تستبشر ...

فالتحم الحبيبان في عناق نوراني ،ودموع الفرحة تنهمر بسخاء على خديهما، لترسم سيولا على أديم وجههما الجميلين بنور ربهما .

ارتمى نديم على قدمي أمه يقبلهما بلهفة ،منقطعة النظير ، كأنه يحاكي دقات القلب،ثم شرع يحكي لها قصته ،ثم وقف فقبل يديها ثم رأسها ومسح العرق من جبينها ،وقال لها بصوت خافت ،خافضا جناح الذل لها :

- أمي !!!حبيبتي...سأخرج للبحث عن العمل وقبل ذلك سأغسل لك الأواني وأحضر لك طعاما تأكليه من يدي .
- لا عليك بني إنني صائمة الأيام البيض، ولا زال لي يوم واحد ، هو غدا إن شاء الله ...
- لقد صدق الله الرؤيا بالكمال والتمام ...سبحان ذو الجلال والإكرام .

وصدق نديم في توبته ،وأصبح نديما للمصلين و الصالحين وأهل العلم و القلم ،وفارق منادمة المدمنين على الحشيش والكحول والخمر وسائر أوكار الهم والغم ،بل وأصبح يدعوهم إلى الثورة على أنفسهم الأمارة بالسوء كما فعل ،و لكن من بعيد،دون مجالستهم في مجالس السوء ،فتوبته لا زالت طفلة صغيرة هشة

العظام ،قد تكسر في أي لحظة ،و إنقاذ النفس أولى من الغير .و إصلاحها مقدم على إصلاح غيرها ،فلنبدأ بالذات أولا .

أصبح نديم يسير مكتبة ضخمة ،و نجح في ثانوية عامة ،بالدراسة الحرة ،ثم تابع دراسته الجامعية، وانخرط في جمعيات محاربة الإدمان وإنقاذ الأطفال المشردين،كي يكفر عن خطياه ،فرب حسنة تمحو سيئات . تزوج نديم و أصبح الآن أبا وكلما دخل إلى المنزل قبل يدي وقدمي أمه ،وجبينها ورأسها ،فأمست عادة له ،حتى أن أبنائه أصبحوا يفعلون السنة نفسها،معه وأمهم وجدتهم !!!

(انتهت القصة)